سُورَةُ يُونُسَ

❁ التَّعريفُ العامُّ بالسّورة:

نقل ابنُ عطيَّةَ الأندلسيُّ قولَ الجمهور أنَّ سورةَ يونس مكيَّةٌ خلا بعضَ الأقوال الّتي استثنت قولَه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [يونس: 40]، وقولَه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: 94 - 97][1].

قال سيّد طنطاويّ: "والّذي تطمئنُّ إليه النّفسُ، أنّ سورةَ يونس جميعَها مَكيّةٌ، كما قال المُحقّقون منَ العلماء؛ لأنّ الّذين قالوا بوجود آيةٍ أو آياتٍ مَدنيّةٍ فيها لم يأتوا بروايةٍ صحيحةٍ تَصلُح مُستنَدًا لهم، ولأنّ السّورةَ الكريمةَ من مطْلعِها إلى نهايتِها تُشاهَدُ فيها سِماتُ القرآن المكيِّ واضحةً جليّة"[2].

عددُ فواصلِها وترتيبُها:

مئةٌ وتسعُ آيات عند جُمهور أهل العَدَد، ومئةٌ وعشرُ آيات عند أهل العَدَد بالشّام[3].

وهي السّورةُ العاشرةُ في ترتيب المصحف الشَّريفِ، تقعُ بين سورتَي التَّوبة وهود، حسبَ التَّرتيب التَّوقيفيِّ لسوَر القرآن الكريم، وذكر بعضُ المُفسِّرين أنَّ ترتيبها النُّزوليَّ هو الواحدُ والخمسون في عِداد نُزول سوَر القرآنِ بعد سورة بني إسرائيل وقبل سورة هود[4].

فضائلُ سورةِ يونس:

لم يَرِد نصٌّ من حديث صحيح يُخصِّصُ السّورة بذكر فضائلِها، خلا ما وردَ على

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/102.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/8.
(3) الدّانيّ، البيان في عدّ آيّ القرآن، ص: 168.
(4) الجَعْبَريّ، تقريب المأمول في ترتيب النُّزول، ص: 143، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/78.

وجه العُموم في فضل المِئين من سور القرآن، فعنْ واثِلَةَ بنِ الأسْقَعِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أُعْطيتُ مَكانَ التَّوْراةِ السَّبْعَ، وأُعْطيتُ مَكانَ الزَّبورِ المِئينَ، وَأُعْطيتُ مَكانَ الإنْجيلِ المَثانيَ، وَفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّلِ»[1].

وقد عدّها الطّبريُّ منَ السّبع الطِّوالِ مع البقرة وآل عمرانَ، والنّساءِ، والمائدةِ، والأنعامِ، والأعرافِ[2]، والجمهورُ على أنّها منَ المِئين وفضلُها ظاهرٌ في الحديث الشَّريف على كِلا المعْنَيَيْن على أنّها تعدِلُ التّوراةَ أوِ الزَّبور.

❁ مناسبةُ اسمِ السّورةِ الكريمةِ:

اسمُ السّورة المُشتهرُ الّذي لم يَرد غيرُه: سورَةُ يونس، يقول ابنُ عاشور: "سُمِّيَتْ في المَصاحفِ وفي كُتُبِ التَّفسيرِ والسُّنَّةِ (سورَة يونُسَ) لأنَّها انْفَرَدَتْ بِذِكْرِ خُصوصيَّةٍ لِقَوْمِ يونُسَ، أنَّهُم آمَنوا بَعْدَ أنْ تَوَعَّدَهُم رَسولُهُم بِنُزولِ العَذابِ فَعَفا اللّه عَنْهُم لَمّا آمَنوا. وتلك الخُصوصيَّةُ كَرامَةٌ ليونُسَ ﷺ، ولَيْسَ فيها ذِكْرٌ ليونُسَ غَيْرَ ذلك. وقد ذُكِرَ يونُسُ في سورَةِ الصّافّاتِ بأوْسَعَ مِمّا في هذه السّورَةِ، ولكنَّ وجْهَ التَّسْميةِ لا يوجِبُها"[3].

وكلامُ ابن عاشور غايةٌ في الدّقّة فتَسميةُ السّورة باسم نبيّ اللّه يونسَ ﷺ الّذي لم تتجاوز قصّتُه فيها إشارةً سريعةً في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: 98] أمرٌ يَدعو إلى التّفكير في سورة أخذت على عاتقها تقريرَ مسائلِ العقيدةِ الأساسِ، حيث ناقشت مُشركي قريشٍ في كلّ أسانيدِهم الباطلةِ، وعرضت لهم بعضَ المشاهدِ من قصّتيْ نوحٍ وموسى ﷺ وما جرى مع أقوامِهما منِ استعجالٍ وإهلاك، بينما وَرَدَ ذِكرُ قصّة يونس ﷺ في سورة الصّافات بتفصيلٍ أكبرَ، وذلك في الآيات: [139 - 148] من سورة الصّافات، ولكنّ الإشارةَ لقصّة يونس ﷺ في سورة حملتِ اسمَه إنّما جاءت؛ لأنّها المَثَلُ الوحيدُ البارزُ للقوم الّذين تدارَكوا أنفسَهم قبل مُباغتةِ العذاب لهم؛ فثابوا إلى ربّهم وفي الوقت سَعةٌ؛

(1) أحمد، المسند، الحديث رقم: (16982) واللّفظ له، والطَّيالسيّ، المسند، الحديث رقم: (1105)، والطَّحاويّ، شرح مُشكِل الآثار: (1389).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/101 - 102.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/77.

وهم وحدَهم في تاريخ الدَّعوات الّذين آمنوا جملةً بعد تكذيبٍ، فكشفَ عنهمُ العذابَ الَّذي أوعَدَهم به رسولُهم قبل وقوعِه بهم، كما هي سُنّةُ الله في المُكذّبين المُصرّين.

فقد حدّثتِ السّورةُ عن مصير قوم نوحٍ، وذلك في الآيات [يونس: 73 - 74]، وعن مصير قوم موسى وذلك في الآيات [يونس: 90 - 91]، ثمّ عقّبت السّورةُ بعدها وقبل الإشارةِ إلى قوم يونسَ بسُنَّةٍ اجتماعيّةٍ من سُنن الله في الظّالمين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: 96 - 97]، فكانتِ الإشارةُ إلى قصّة يونسَ عليه السلام على أنّهم أنموذجٌ للقوم الّذين انتفَعوا بدعوة نبيِّهم حتّى لو أصاب نبيَّهم اليأسُ منهم.

وهذا ما يُفسّرُ ظاهرةَ تَكرار ذِكْر النّفع والضُّرّ في السّورة الكريمةِ في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾ [يونس: 12]، وكما في الآيات [يونس: 18، 49، 106].

وإذا كانت قصّةُ قوم يونسَ عليه السلام تمثّلُ حالةً مشهودةً في التّغيُّر الإيجابيّ؛ فقد حَفَلتِ السّورةُ كذلك بمشاهدَ متنوّعةٍ لحالات التّغيُّر السَّلبيِّ، أوِ التّغيُّرِ الإيجابيّ المُتأخّرِ عن وقتٍ ينتفعُ به أصحابُه، من مثْلِ ما وردَ في السّورة من تصوير حالةِ الّذين دعَوا الله تعالى في البحر أن يُنجّيَهم ممّا أحاط بهم من ريحٍ عاصف وموجٍ متلاطم؛ فأنجاهم فلم يَشكروا ولم يعتبِروا، وذلك في الآيات [يونس: 22 - 23]، وكذلك ما جاء في الآيات من تصريف قدرةِ الله تعالى على إرسال العذابِ أو رَفْعِه عن الأقوام، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ٥١﴾ [يونس: 50 - 51]، ومنه ما جاء من إنعام الله تعالى على بني إسرائيلَ من تخليصِهم من شرور فرعونَ وقومِه، ومن وِراثةِ الأرض كما جاء في الآيات [يونس: 90 - 93].

وممّا يؤكّدُ ما تقدّم ذِكرُه أنّ هذه السّورة قدِ انفردت بذكر أسلوبِ الاستفهام في كلمة ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ مرّتين في السّورة، وذلك في سياق إنْكار التَّأخير والتَّوْبيخ عليه[1]، وما فيها من دلالةٍ زمنيّةٍ تُحتِّمُ على الأقوام والأفرادِ أن يَستشعروا خطرَ العذاب قبل مجيئِه، وأن يمتثِلوا للآيات والرُّسل قبل أن يَحِلَّ عليهم الغضبُ، فلا غرْوَ إذن أن تُسمّى السّورةُ باسم

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.

نبيّ اللّه الكريمِ يونسَ ﷺ الّذي خالفَ قومُه كلَّ مَن سبقَهم ولحقَهم منَ الأقوام، وانتفعوا بدعوة نبيِّهم ولو بعد حين.

❁ موضوعاتُ السُّورةِ ومقاصدها ومحورها العام:

دَلالةُ التَّوقيتِ الزَّمنيِّ للسّورة:

الفترة الزّمنيّةُ الّتي نزلت فيها سورةُ يونس فترةٌ حافلةٌ بأحداثٍ جِسامٍ عاشها المسلمون الأوائلُ في مكّةَ المكرّمةِ، حيث نزلت بعد فترةٍ طويلةٍ من حياة المسلمين بها، وبعد معاناةٍ واضطهادٍ، فنزلت عقبَ حادثةِ الإسراء والمعراج، وبعد أن تقلَّبت عليهم فيها أحوالٌ منَ التّكذيب والتّشكيك، فجاءت لتُعالجَ مواقفَ المشركين من قضايا العقيدةِ الرَّئيسةِ، كالنّبوّة والوحْي، وموضوعِ البعث، وحقيقةِ الحياة، وخلالَ ذلك كلِّه عَرَضت بعضَ آياتِ اللّه في الكون، وبيّنت طبيعةَ هذا الإنسانِ، ذاكرةً بعضَ المشاهدِ القصصيّةِ لِمَن سَبَقهم منَ الأقوام على الكُفر، وخُتمتِ السّورة بتلقين الرّسول ﷺ بأنّ الهدايةَ منَ اللّه، فمَنِ اهتدى فلنفسه، ومَن ضلّ فعليها، وأنّ اللّه سيحكمُ بينه وبين مُعانِديه، إذن نزلت السّورةُ في جوٍّ مشحونٍ يُمثّلُ ذُروة الصّراع بين الحقّ والباطلِ في مرحلةٍ ساخنةٍ من مراحل الدّعوةِ في مكّة.

المقاصدُ العامَّةُ للسّورة:

أوّلاً: إثباتُ رسالة النَّبي ﷺ بدلالة عجْزِ المشركين عن مُعارضة القرآن، وبيانُ أنَّ القرآن من عند اللّه، وذكرُ موقفِ المشركين من حقيقة الرِّسالة والقرآن، وإبطالُ إنكارهم أن يُرسل اللّه رسولًا منَ البشر، وتذكيرُهم بما حلَّ بأهل القرون الماضيةِ؛ لَمّا أشركوا، وكذَّبوا الرُّسلَ.

ثانيًا: إثباتُ انفرادِ اللّه بالإلهيَّة بدلالة الرُّبوبيّة؛ إذ هو تعالى خالقُ العالم ومُدبِّرُه، فأفضَى ذلك إلى إبطالِ أن يكون للّه شركاءُ في إلهيَّته، وإبطالِ معاذير المشركين بأنَّ أصنامَهم شفعاءُ عند اللّه.

ثالثًا: إثباتُ البعث والجزاء، وبيانُ حِكمة الجزاءِ وصِفته، ووعيدُ مُنكري البعثِ المُعرضين عن آيات اللّه، وتوبيخُ المشركين على ما حرَّموه ممّا أحلَّ اللّه.

رابعًا: ذكرُ قِصص بعض الأنبياء مع أقوامهم، وذكرُ موقف أقوامِهم في تكذيبهم المُشابهِ لحال الكفّارِ مع النَّبي ﷺ؛ حثًّا على الاعتبار بما حلَّ بهم جزاءَ تكذيبِهم، وتسليةً للقِلَّة المؤمنة بذِكْر عاقبة المؤمنين الّذين آمنوا بأنبيائهم.

خامسًا: الاستشهادُ على صدْق رسالة النَّبي بشهادة أهل الكتابِ.

موضوعاتُ السُّورةِ:

تناولت سورةُ يونس جملةً منَ الموضوعات، يجمعُها على تَفرُّقها، أنّها تقوم على ترسيخ الجانب العَقَديِّ لدى المسلمين في مكّة، وردِّ شُبهات المُكذّبين؛ فقد تناولتِ السّورةُ معانيَ عديدةً يمكن إجمالُها فيما يأتي:

ابتدأتِ السّورةُ بإثبات رسالة النّبيِّ ﷺ من خلال إثبات عجْزِ العرب عن معارضة القرآنِ بهذه الحروف المقطّعةِ الّتي ابتدأت فيها السّورةُ، بقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1]، وصرّح بهذا التّحدّي في أثناء السّورة بقوله: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: 38]، وأتْبَعَ ذلك بإثبات رسالة النّبيِّ ﷺ، وإبطالِ مزاعم المشركين بشفاعة أصنامِهم عند الله، وبيّن انفرادَ الله بالألوهيّة، وبأنّه خالقُ العالم ومُدبِّرُه، وإبطالِ أُلوهيّة غيرِ الله تعالى، وأنّها لا تُغني شيئًا من دون الله ﷻ، وبيّن دلائلَ وَحْدانيّته تعالى في آيات الكون، والاعتبارِ بما خلق الله للنّاس من مواهبِ القدرة على السَّير في البرّ والبحر، وضربَ المثلَ في أثناء ذلك بالحياة الدّنيا وبهجتِها وزوالِها، وأنَّ الآخرة هي دارُ القرار، وبيَّن حكمةَ وصفةَ الجزاء لمُنْكري البعث، وتضمَّنتِ السّورة جانبًا من قصّتيْ نوحٍ وموسى عليهما السلام وما جرى بينهما وبين أقوامِهما، وبيانِ عاقبة أقوامهما بعد استعجالِهم العذابَ وتكذيبِهم الرّسلَ، وبيَّنتِ السّورة طبيعةَ هذا الإنسان، وما يَعْتريه من تبدُّل الأحوال في الشّدّة والرّخاء، وخُتمتِ السّورةُ بتقريرِ أنَّ هداية مَنِ اهتدى وضلالةَ مَن ضلّ إنّما يكون مآلُها على أصحابها، وليس على الرّسول ﷺ منها شيءٌ، وأنّ الله تعالى سيَحكمُ بينه وبين مُعانِديه[1].

المحورُ الّذي تدورُ حولَه موضوعاتُ السّورةِ:

أمّا من حيثُ الوَحدةُ الموضوعيَّةُ لسورة يونس فإنّها لا تفترقُ عنِ السّور المكّيّةِ الأخرى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/78 - 80.

في تقرير أصول العقيدةِ الصّحيحةِ، مع احتفاظ كلِّ سورة منها بخصوصيّةٍ موضوعيّةٍ وأسلوبيّةٍ تُميِّزها عن غيرها منَ السّور وإن شاركَتْها في بعض الأصول؛ فهي تُعالجُ الشّبهاتِ الَّتي يعرضُها منكرو الوحْيِ في كلّ زمانٍ ومكانٍ؛ فتناولتِ السّورةُ الكريمة هذه الشّبهاتِ بالعرْض والنّقد، مبيِّنةً دوافعَ إثارتها، ومجالاتِها، وآثارَها وأسبابَ علاجها، ونماذجَ من تاريخها القديم منَ المشكّكين السّابقين، فعرَضت مصيرَهم، وخصّت قوميْ نوحٍ وموسى عليهما السلام لاستفاضة مصائرِهم في تاريخ البشريّةِ، وذكرت أنموذجًا فريدًا لمَنِ انتفع بالهداية منهم، وعادَ إلى الجادّة بقوّةٍ ويقينٍ، وهم قومُ يونس عليه السلام.

بدأتِ السّورة بذِكْر شُبهة الوحْيِ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس: 2] ثمَّ عرضت لجانبٍ من شُبُهاتهم في إنكار البعث: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس: 7 - 8] وشُبُهاتهم حول القرآن: كما في الآيات [يونس: 15 - 16]، والآيات: [يونس: 37 - 39]، وعرضت لكثيرٍ من شُبهاتهم حول وَحدانيّة الله، ونسبةِ الشُّركاء له، كما في الآيات: [يونس: 18 و 34 - 35 و 68].

وبيّنت لهم في أثناء الرَّدّ عليهم حقيقةَ الحياةِ الدّنيا، وذلك في الآية الرّابعة والعشرين منَ السّورة، وعرضت مظاهرَ آيات الله في الكون الَّتي تُكذّبُ مزاعمَهم، كما في الآيات [يونس: 5 - 6، و31].

وبيّنت لهم السّورةُ في أثناء ردِّها على شُبهاتهم عاقبةَ مَن سبقَهم بكُفرهم وجُحودِهم كما في الآيات [يونس: 13 - 14].

وخُتمتِ السّورةُ الكريمةُ بوصيّةٍ للنّاس جميعًا في موضوع الهداية، وأنّ مآل الأمر ومناطَه موكولٌ إليهم، وتضمّنتِ الآيةُ الأخيرةُ وصيّةً للنّبيّ ﷺ في الصّبر على أصحاب هذه الشُّبهات، وأن يَكِل أمرَ أصحابها إلى الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝١٠٨ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝١٠٩﴾ [يونس: 108 - 109].

❁ المناسباتُ بين سورة يونسَ والسّورِ المجاورة:

مناسبةُ اتّصالِ سورة يونسَ بسورة التوبة:

جاءت سورةُ يونس في ترتيب المصحف الشَّريف بعد سورتيْن مدنيّتيْن هما الأنفالُ والتّوبة؛ اللّتان فصلتا بينها وبين سورتَي الأنعام والأعراف المكّيّتيْن، وقد تناولتِ السّورتان المدنيّتان مجموعةً منَ التّحدّياتِ والأزماتِ والغزوات المشتركةِ بينهما، والّتي خاضها المجتمعُ المسلمُ في المدينةِ، حتّى عدّهما بعضُ العلماء سورةً واحدةً، كما عدّوا سورتَي الأنعام والأعراف من قبلِ ذلك سورةً واحدةً لما يجمعُهما منَ الأواصر والرّوابطِ.

وبيّن الآلوسيُّ بعضَ هذه الوشائجِ بين سورتَي التّوبة ويونس فقال: "ووجهُ مناسبتها لسورة براءةَ أنّ الأولى خُتمت بذِكر الرّسول ﷺ وهذه ابتدأت به، وأيضًا أنّ في الأولى بيانًا لما يقوله المنافقون عند نزول سورةٍ منَ القرآن، وفي هذه بيانٌ لما يقوله الكفّارُ في القرآن، حيث قال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: 38] الآية، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ﴾ [يونس: 15]، وأيضًا في الأولى ذمُّ المنافقين بعدم التَّوبة والتَّذكُّر إذا أصابهم البلاءُ في قوله سُبحانه: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: 126] على أحد الأقوالِ، وفي هذه ذمٌّ لمَن يُصيبه البلاءُ فيَرْعوي ثم يعودُ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ﴾ [يونس: 12] وفي قوله سُبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: 22] إلى أن قال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾ [يونس: 23]، وأيضًا في الأولى براءةُ الرّسول ﷺ منَ المشركين مع الأمرِ بقتالِهم على أتمِّ وجْهٍ، وفي هذه براءتُه ﷺ من عملِهم، لكنْ من دون أمرٍ بقتالٍ، بل أُمر ﷺ أن يُظهرَ البراءةَ فيها على وجهٍ يُشعرُ بالإعراض وتخليةِ السَّبيل، كما قيل على ضدِّ ما في الأولى، وهذا نوعٌ منَ المناسبة أيضًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: 41] إلى غيرِ ذلك"[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/55.

ويُضاف لرأي الآلوسيِّ السّابق على وجاهته أنَّ هذه السّورةَ الكريمةَ قد ربطت بين شُبهات المنافقين والمشركين مَصدرًا ومآلًا؛ فكلاهما ناشئٌ عن تكذيبِهم الوحْيَ، وكلاهما يُفضي إلى الكُفر والضّلال، فلَئِن بيّنت سورتا الأنفال والتّوبةِ حقيقةَ الصّراع بين الحقّ والباطل، فقد عَرَضت سورةُ يونس للأسانيدِ الفكريّةِ والتّاريخيّةِ لهذا الباطل وقوّضتْها بالحُجّة والبيان، كما قوّضت بنيانَه سورتا الأنفال والتّوبة بالسّيف والسِّنان، ولعلَّ أحدَ الرّوابط المهمّةِ بين السّورتيْن أنَّ سورة التَّوبة قد حكمت على المنافقين الّذين أطنبتْ في فضحِهم بالكُفر في أكثرَ من موضعٍ من مثْلِ قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: 49] وقولِه: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التّوبة: 66]، وغيرِهما.

فجاءت سورةُ يونس لتُبيّن أسانيدَ وشُبهاتِ أسيادِهم الّذين سبقوهم في الكفر على وجه التّفصيلِ.

وإذا كانت سورةُ التّوبة قد عابت على المنافقين اتّخاذَهم مسجدَ الضّرار الّذي لم يُبْنَ على التّقوى من أوّل يوم، كما جاء في الآيات [التوبة: 107 - 110] فإنّ سورة يونس قد بيّنت أصولَ هذا البناء على التّقوى والعقيدةِ الحقّة، وبيّنت عاقبةَ المتّقين: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: 62 - 64].

مناسبةُ اتّصالِ سورة يونسَ بسورة هودٍ:

أمّا وجهُ اتّصالها بسورة هود بعدَها، فقد تناسبت معها، ابتداءً بكونِها حملت اسمَ نبيٍّ كريم مثلِها، وكذلك اشتركتا في مطلعِهما في الأحرف المُقطّعةِ والحديثِ عنِ الكتاب، ووافقتا بذلك السّورَ الّتي تَليهما: يوسفَ والرّعدَ وإبراهيمَ والحجر، وخُتمت سورةُ هود بما ختمت به سورةُ يونس وقبلها التَّوبةُ في الحديث عنِ النّبيّ ﷺ، بقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: 120 - 123].

فضلًا عن تفصيل سورة هودٍ لما أُجمل من قصّة نوحٍ ﷺ في يونس تفصيلًا لم يكن له مثيلٌ في سورةٍ أخرى، كما استعرضت سورةُ هود رحلةً كوكبةٍ أخرى منَ الأنبياء عارضةً في أثناء السّورة المشكلاتِ الَّتي عالجها كلُّ نبيٍّ مع قومه، وذِكْرَ بعض شُبهات الكافرين حولَهم، واستعجالَ أقوامِهم العذابَ، وبيانَ ما أصابهم، فاللُّحمةُ بين هذه السّور المتجاورةِ ظاهرةٌ للعَيان، لا تحتاج لأدنى تكلُّفٍ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»